ما هي « الاهمسا » ؟

ما هي هذه « الاهمسا » التي صيرت غاندي قديساً وطوعت له تلك القوة التي صنع بها ما لم يصنعه زعيم من زعماء بلاده ؟

إننا إذا فهمنا منها مجرد حب السلامة من طريق المسالمة كانت أسهل مذهب من مذاهب الحياة يدعى إليه ويستجاب .

لأن حب السلامة غريزة في جميع الأحياء .

ولكننا إذا فهمنا « الاهمسا » هذا الفهم كان ذلك أخطأ الخطأ في عرفانها على حقيقتها ، لأنها ليست أسهل مذهب يدعى إليه ويجاب ، بل هي في الواقع أصعب المذاهب في الدعوة ، وأصعبها في الاستجابة ، وأعسرها على التنفيذ والمراعاة .

فهي أصعب من الدعوة إلى القتال . لأن الدعوة إلى القتال لم تعدم مجيباً في وقت من الأوقات ، وهي أصعب من الدعوة إلى الشجاعة ، لأن الشجاعة قد تكون مطاوعة لدواعي الفطرة ، أو دواعي الحماسة الاجتماعية . فلا تعدم الدعوة إليها مجيبين في كل حين .

هي أصعب من هذه الدعوات وأمثالها ، لأنها تتطلب

مغالبة للنفس لا تتطلبها دعوة أخرى ، وقد تتطلب هذه المغالبة بغير فخر لصاحبها وبغير صدى من الإعجاب فى نفوس أبناء قومه . ولعلها على نقيض ذلك تعرضه للخزى والازدراء .

وقد تنحصر الشجاعة فى ضبط النفس واستجماع قوتها فى وجه الخطر ، ولكن « الاهمسا » تكلف العامل بها أن يضبط نفسه ، ويستجمع قوته فى وجه الخطر ، وفى وجه الإغراء وفى وجه السمعة السيئة . فلا يهمه أن يوصف بالجبن إذا كان هو على يقين أنه ليس بجبان وأنه لا يخاف .

وإذا قلت « لا خوف » فقد حصرت الشجاعة من جميع أطرافها ، سواء أردت الشجاعة فى المسائل الجسدية أو أردت الشجاعة فى المسائل الأدبية .

ولكنك لا تحصر « الاهمسا » بهاتين الكلمتين ، لأنها تنفى الخوف وتنفى معه الكراهية . فلا خوف ولا كراهية . بل شجاعة ومحبة ، وهاتان الخصلتان هما « الاهمسا » فى اللباب .

وقد قال غاندى غير مرة : إنه يفضل العنف على الجبن والفرار من الخطر . قال ذلك فى إبان الفتنة الهندية سنة ١٩٢٠ ، وقال يومئذ إنه يفضل العنف ألف مرة على مسخ النوع برذيلة الجبن والفرار . ومن كان لا يبالى أن يقتل ويُقتل فهو خير ممن يفر من النزال ، لأنه يخاف القتل فى مشتجر

القتال . وقد كان يعلم الآثمين أنفسهم أن الفرار من الرذيلة أحجى بهم من الفرار من الموت : جاءه متهم مرة فى جريمة سرقة واعترف له بالجريمة . فقال : عجباً . إنك كنت تعلم أنك تسرق وكنت تعلم العقاب على السرقة فلماذا فعلتها ؟ قال الرجل مقتنعاً : لأننى لا بد أن أعيش . . . فأعاد غاندى كلمته مقتنعاً أيضاً : لا بد أن تعيش ! ! لماذا ؟ يريد أن يقول : إن العيش مع الرذيلة خير منه الموت .

فـ « الاهمسا » هى ترك العنف شعوراً بالقوة والقدرة النفسية وليست هى ترك العنف شعوراً بالضعف وعجزاً عن المقاومة .

وقد كانت دعوة « الاهمسا » أصعب الدعوات فى الهند خاصة ، حين تصدى غاندى للتبشير بها وإحيائها فى الآداب الهندية . لأن دعوته قد صادفت الثورة الوطنية فى إبانها ، وصادفت كفراناً من أبناء الهند بعقيدتهم القديمة فى السماحة والمسالمة ، إذ كان فيهم من يعلل سطوة الإنجليز وخنوع الهنود بأن الانجليز يأكلون اللحوم ، وأن الهنود يحرمون أكلها ويعيشون على غذاء النبات ، وشاعت بينهم أغنية بهذا المعنى يرددونها فى المدارس والمحافل ، فكانت دعوة غاندى يومئذ تقاوم تيار الشعور فى الهند نفسها ، وإن كانت من أعرق الدعوات فى البلاد .

ولم يكن غاندى نفسه يجهل ما فى غذاء اللحوم من الفائدة الجسدية . فقد كان يرى من علاج الجرحى أن آكلى اللحوم يقاومون التلوث ، وتندمل جراحهم قبل اندمال الجراح فى آكلى النبات ، وكان يرى أن القوة البدنية أعم وأظهر فى آكلى اللحوم . ولكنه كان يقول : إن القوة الإنسانية لا تأتى من قوة العضلات ، بل من قوة الإرادة ، وأن غلبة الروح على البنية أليق بالإنسانية من غلبة البنية على الروح .

وكل حين عرضة لأسئلة التعجيز أو التنطع من طلاب الفتاوى المتمحلين . فلم يعدم غاندى عشرات الأسئلة من هذا القبيل ، إما تعجيزاً له ، أو رغبة فى استيفاء العمل بنصيحته ، فمنهم من كان يسأله : هل يجوز لى أن أقتل الثعبان . أو يجب علىّ أن أتركه يمضى لسبيله ؟ ومنهم من كان يسأله : هل تتفق الهند على جيش مسلح أو لا تتفق عليه ؟

فكان يجيب على كل سؤال من هذه الأسئلة بما يناسبه ويحصره فى حدوده . كان يقول لسائله عن الثعابين : إنك لا تقتل ثعابين الغضب والجشع التى فى صدرك ، ثم تبحث عن الثعابين التى قد تصادفها فى طريقك . إن هذه الثعابين ليست بمشكلة خلقية ، وإنما المشكلة الخلقية أن تقتلع جذور الكراهية والاندفاع مع الشهوة والهوى من صميم نفسك . وأنت

فى حلّ بعد ذلك من كل صنيع تدفع به الأذى فى غير عداوة ولا انتقام .

وكان يقول لسائليه عن الجيش : إن مسألة الجيش مسألة سياسية يحلها السياسيون ، ولكن « الاهمسا » مسألة خلقية يحلها كل إنسان لنفسه ليضبط عنانه فى يمينه ، وهو المرجع فى كل فتوى تعرض له متى اطمأن من وسواس الجبن والكراهية والكبرياء .

هذه هى خلاصة « الاهمسا » كما كان غاندى يبشر بها أبناء أمته ، وأبناء كل أمة تصل إليهم دعوته .

وهى ولا شك دعوة لا تقبل كلها ، ولا ترفض كلها ، ولكنها خليقة ألا تبخس حقها بسوء التصور أو سوء التطبيق .

وقد تتوقف كلها على فهم المراد بالعدوان أو سبب العدوان . فربما كان العدوان الأكبر فى ترك المعتدى يفعل ما يشاء ، وهو فى أمان من سوء عقباه .

وقد صدق غاندى حين قال : إن العقل الذى كشف عن « الاهمسا » عبقرية أعظم من نيوتن وأشجع من ولنجتون . ولكنه قد يكون كذلك ، ولا يلزم ضرورة أن تكون هذه العبقرية فى عصمة من الخطأ والإسراف .

« الاهمسا » من الوجهة العلمية

فى الوقت الذى قام فيه غاندى بالدعوة إلى السلام واجتناب المقاومة العنيفة ، كانت أوربة تضطرب بدعوة أخرى تناقضها تمام المناقضة ، وهى دعوة القوة والقسوة ، أو دين القوة كما سماه أتباعه ومروجوه .

وكانت الدعوة إلى دين القوة تنبعث من جانب الفلاسفة والمفكرين ، كما تنبعث من جانب الساسة وقادة الجماهير .

فانتشرت النازية والفاشية فى أوربة الوسطى وأوربة الجنوبية ، وقام لها أنصار فى البلاد التى تزعزعت فيها مبادىء الديمقراطية ، أو عجزت فيها الديمقراطية عن حل مشكلاتها وتعزيز الرجاء فى تحقيق مثلها العليا .

وكانت الشيوعية تحارب النازية والفاشية ، ولكنها لاتخالفها فى الإيمان بالقوة والاعتماد عليها وحدها فى إتمام الانقلاب الذى يقضى على نظام رأس المال ، ويقيم النظام الشيوعى فى مكانه .

وكان من الطبيعى أن تثير هذه الدعوة المطبقة مخاوف أنصار السلام ، ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى التى ابتلى

فيها الأوربيون من شرور الحرب بما بغضها إليهم ، وضاعف مساعيهم فى منع الحروب وتقرير مبادىء الوساطة والتحكيم. فنشأت جماعات الأمم ، وكثر دعاة السلم والمسالمة ، وتصدى للكتابة فى هذا الغرض نخبة من أقطاب المفكرين وحملة الأقلام . وتحول الأمر إلى عقيدة شعورية لفرط النفور من الحرب ، وشدة الحاجة إلى إيمان يقابل إيمان المبشرين بدين القوة وشريعة العنف والقسوة .

وانتقل صدى « الاهمسا » إلى أوربة فوصل إليها فى أوانه ، ودان بها بعض كتابها على طريقة الغربيين فى كل دعوة ، وهى عرضها على العقل من جانب البحث والعلم ، غير مكتفين بالبشارة الروحية أو المواعظ الدينية على طريقة دعاة « الاهمسا » من الهنود .

ومن خيرة الكتاب فى هذا الغرض — على هذا النحو — « ريتشارد جريج Gregg » صاحب كتاب « قوة اللاعنف أو المسالمة » « The Power of Non-Violence » .

فإنه قد حشد لتعزيز هذا المذهب كل ما يمكن أن يحشد له من تقريرات العلوم الحديثة ، وفى مقدمتها علم الحياة وعلم النفس ، واستشهد بتجارب التاريخ كما استشهد بكل تجربة نافعة من تجارب الزمن الأخير .

ومن أمثلة آرائه التي تدل على منحى تفكيره ، قوله في تعليل الخوف والغضب : « إن لهما ـ من الوجهة الفزيولوجية ـ وظيفة نافعة وهي إعداد البنية للعمل عند الحاجة إلى الهرب أو القتال ، ويشتمل هذا الإعداد على امتنهاض قوى البنية وحفزها بحملتها : دماغاً وأعصاباً مسيطرةً على العضلات الخاضعة للإرادة ، أو أعصاباً مسيطرةً على العضلات التي تعمل من تلقائها ، أو جهازاً للتنفس ، أو نظاماً للدورة الدموية ، أو إفرازاً من بعض الغدد التي تدخل فيها الغدة الدرقية والغدة الكظرية والكبد ، لتقذف في مجرى الدم من المواد مايصلح لتوليد الطاقة والحركة . وإذ كانت الأفكار على الأغلب الأعم في طبيعتها من قبيل الخطط التي ترسم وسائل العمل الممكنة ، كان من شأن الخوف والغضب أن يعملا في العقل كذلك ، بحيث يمكن أن يقال أن الخوف والغضب يعتبران حالة انتقال من نشاط أقل إلى نشاط أوفر وأقوى » .

وعرض للناحية النفسية . فاستشهد بقول العالم النفساني شاند Shand : إن الدهشة تجب شعور النفور والاشمئزاز والاحتقار بما هو موضوع للدهشة . فإذا اعتدى إنسان على إنسان فقاومه المعتدى عليه عنفاً بعنف وقسوة بقسوة ، فماذا يكون من أثر ذلك في نفس المعتدى ؟ إنه يزداد إيماناً بصحة

الوسيلة التى استخدمها واعتبارها مرجعاً صالحاً لتسوية النزاع بينه وبين خصمه . فلا يتزلزل اعتقاده بحقه فيما عمل . بل يتأكد عنده هذا الاعتقاد وينشط للمضى فى عدوانه . ولكنه إذا اعتدى فلم يلق من المعتدى عليه مقاومة من طبيعة اعتدائه ، فقد يقع فى روعه لأول وهلة أنه جبن ومهانة وضعف من ذلك المعتدى عليه . ولكنه لا يلبث أن يعلم من مظهره ومخبره أنه ليس بالجبان ولا بالمهين فى نظر نفسه حتى تأخذه الدهشة ، فيكف عن الاحتقار والترفع ، ويرجع إلى نفسه فيحاسبها على اعتدائه ، ويستطيع أن يدرك فى هذه الحالة أن الاعتداء مخجل لصاحبه ، وليس بالمرجع المعترف به فى معاملة غيره .

ولا نزاع عندنا فى صواب هذه التقريرات من الوجهة الفزيولوجية أو الوجهة النفسانية ، ولكنها فيما نرى محل نزاع كثير فى تسويغ « الاهمسا » على اطلاقها ، أو فى القول بأن المقاومة من جنس العمل أمر لا تدعو إليه الحاجة ، فى حياة الفرد أو حياة الجماعة .

فقد تكون عوارض البنية التى تنفع الانسان فى حالة الغضب أو الهرب تدبيراً فزيولوجياً لاتدعو الحاجة إليه الآن كما كانت تدعو إليه أيام الهمجية الأولى ، أو قبل هذا الطور من

أطوار الحضارة ، وهو طور لاينتفع فيه الانسان بالغضب والخوف على ذلك المنوال ، ولا يحتاج إلى الهرب ولا إلى النزال كلما غضب أو خاف .

لكن الواقع أن الأخلاق جميعاً تقترن بحالات جسدية من هذا القبيل ، وإن الدواعي الجسدية قد تزول ويبقى الخلق لازماً بعد بطلان الأسباب التي أوجبت دواعيه الجسدية .

ومثال ذلك خلق « الأنفة » ، وهو كما يدل عليه اسمه خلق كان في نشأته مقترناً بحركة تلاحظ على الأنف خاصة فإن الانسان إذا أنف في عصر الحضارة من بعض ما يسمع به أو يراه ، شمخ بأنفه أو قبض منخريه أو أشاح بهما إلى هذا الجانب أو ذاك ، كأنما يتقي رائحة كريهة يعافها ويود الابتعاد عنها .

وكان أصل هذه الحركة الجسدية فعلا هو اتقاء الروائح الكريهة التي لايحب الانسان أن تسري إلى صدره ، ثم أصبحت هذه الحركة الجسدية ملازمة للأنفة من الأشياء التي لا رائحة لها ولا علاقة لها بالمنخرين أو بالنفس الذي يدخل إلى الرئتين .

كذلك يصق الانسان أحياناً علامة على الامتعاض والاستهجان ، وما هي في الأصل إلا حركة جسدية تعليلها

هياج غدده الغضب عند مقابلة النظر أو الشم لشيء لا يقبله الطرف. ثم انتقلت من المحسوسات إلى الأشياء التي لا يقبلها العقل أو الضمير.

ويتناول الفتى الشيء الذي وقعه في مرتعه الصراع والكبرياء. وكان ذلك شيئاً ينفعه أمام خصمه ليروعه بامتداد أعضائه وقوة جسده. ولكنه الآن يتناول كل شيء بقوة نفسية أو جسدية. وقد تكون القوة نفسية محضاً لا تقع عليها العين.

ويشير الإنسان بظهر يده في غير جهد ولا اكتراث إذا استخف بأمر من الأمور، وكأنه يدفع شيئاً يثقل من خفته وهوانه. أنه يدفع بأيسر حركة من أصابع اليد الواحدة.

وهو إذا استخف عقله، أو استخفت نفسه بذلك الأمر، لا يدفع شيئاً يدفع باليدين على أية حال.

والحركات النفسية قد تقترن بحركات جسمية بطلت حكمتها أو بطلت موجباتها «الفزيولوجية»: ولكن بطلان تلك الموجبات لا يدل على بطلان الحركات النفسية التي تلازمها. ولا يفيد أن الغضب والخوف مثلاً لا ينفعان اليوم لأن أعراضهما الجسمية التي لا يتبعها زمناً طويلاً كانت نافعة من الوجهة الفزيولوجية، ثم بطل نفعها في عصر الحضارة من هذه الوجهة.

فإن الغضب والخوف قد ينفعان اليوم من الوجهة النفسية ، وإن لم تستفد بنية الإنسان من هياج الغدد أو تيقظ الأعصاب وتنبه الدماغ .

أما أن المعتدى يخجل من اعتدائه إذا رأى السماحة من المعتدى عليه فى غير جبن ولا استكانة ، فذلك صحيح فى كثير من المعتدين ، وله ولا شك أثره فى تأنيب الضمير وتعويده الكف عن العدوان ، وقلة الاعتزاز به والالتجاء إليه .

ولكننا ، سواء حدث هذا أو لم يحدث ، لا يصح أن نفهم منه أن الخير قوة سلبية ، لا عمل لها إلا أن تترك الشر يعمل ثم تقابله بالسماحة والإغضاء .

فهل قصارى الخير أنه لا يقاوم الشر ؟ وهل من حق الشر وحده أن يبدأ بالعمل ويتمادى فيه ، وأن نترك له أن يخجل أو لا يخجل من عاقبة عمله ؟

ألا يوجد ثمة نوع من التكبح والزجر يعيد المعتدى إلى ضميره فيشعر بتأنيبه ويرجع عن عدوانه ؟

ألا يلزم أن يشعر المعتدى بعجزه عن الاعتداء فى كثير من الأحيان ؟

أليس هناك فرق بين من تأصلت فيه ضراوة العدوان وبين من يستسهله لأمان عقباه ، وهو على استعداد للرجوع

عنه إذا لقى المقاومة من أول اعتداء ؟ . . .

ألا يكون الخير خيراً إلا إذا ضربه الشر فصفح عنه ؟

ألا يجب على الخير أحياناً أن يضرب الشر وهو خيرٌ لا يزال ؟

* * *

فإذا قصرنا الخير على المسامحة ، أو جعلناه فضيلة سلبية أو فضيلة مجاوبة ، فقد يصح على احتمال من الاحتمالات أن الكف عن مقاومة الشرير تصلحه فى حالات ، ولا تصلحه فى حالات .

وينبغى أن تهدينا دهشة الشرير من الكف عن مقاومته إلى حقيقة نفسانية أخرى جديرة بالاعتبار فى معاملة الأشرار ، وهى أن هذه الدهشة تدل على إيمان متأصل فى النفس الانسانية بأن رد العدوان إليها جزاء معقول يصيبها بالحق . فهو من ثم لايضريها بالشر ولا يملى لها فيه ، كلما اعتدت فقوبلت بمقاومة الاعتداء ، وبخاصة حين تجىء المقاومة من المجتمعات التى تتولى صيانة نفسها بأحكام القوانين ، لانتفاء « البواعث الشخصية » هنا وصدور الحكم ممن ليست له فيه مصلحة أو دافع انتقام .

أما اذا اعتبرنا الخير قوة عاملة ، أو قوة إيجابية ، فمن

الواجب إذن أن تعمل وأن تزيل الموانع من طريقها ، وكثيراً ، ماتكون إزالة الشر وإزالة الشرير شيئين متلازمين .

وأيا كان الأثر فى نفس الشرير فمما لا شك فيه أن إزالة شرير من العالم أربح للعالم من إزالة خير انتظاراً لإصلاح شرير . لأن بقاء الخيّر المضمون أربح للعالم من الرجاء فى خيّر فقط ، قد يكون وقد لايكون .

* * *

لكن العبرة فى مذهب « الاهمسا » بعد هذا كله ، هى أن المذاهب الانسانية تتوازن وتتقابل ، وينطلق أحدها إلى أقصى الشدة فينطلق الآخر إلى أقصى اللين .

فـ « الاهمسا » معقولة إذا كان فى العالم مذهب ينادى بأن القسوة دين مقدس ، وأن القوة الغاشمة مقطع الحق كله ، وأن البطش بالضعفاء حق مطلق للأقوياء ، وأن العلاقة بين القوى والقوى لا تكون إلا علاقة نزاع وغلاب .

هذا الغلو فى العنف يقابله ذلك الغلو فى اللين .

ولابد من قوام بين الطرفين النقيضين ، وهو قوام الأمر الذى أخذت به العقيدة الإسلامية . فلا اعتداء ولا قبول للاعتداء ، وإذا صفحت فذلك حق لك ، ولكنه ليس بحق عليك فى كل حال .

« ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين » .

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم » .

« ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

« فمن تصدق فهو كفارة له »

« وإن تعفّوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم »

« وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

* * *

فى هذا القوام بين طرف العنف وطرف اللين صلاح الأخيار والأشرار . فالعدوان ممنوع ورد العدوان حق ، والصفح عنه جائز لمن يطيقه أو لمن يراه .

وبهذا يخرج الخلق من « الآلية » إلى مجال التصرف لانسانى الذى يليق بذوى النفوس والعقول . فلا عدوان ى كل حال ، ولا مسالمة فى كل حال . لأن هذا وذاك عمل لات لاتفرق بين موضع العنف وموضع اللين ، وإنما كون الخلق خلقاً حين يتعالى عن صنيع الآلات .

والانسانية بحمد الله لاتأخذ كل مايقوله الدعاة ولا تنبذ

كل مايقولون . بل هى لاتأخذ ماتظن أنها أخذته ، ولا تنبذ ماتظن أنها نبذته . وإنما يخلص لها ما تعرفه وما لاتعرفه من تلك الدعوات .

وفى ذلك آية شاهدة على أنهم جميعاً مسوقون لما يراد بهم لا لما يريدونه . أو هى آية شاهدة على عناية من فوق إرادة الإنسان .

وإذا ألقى هذا الصيدلى فى بوتقة الدواء عقّاراً غير صالح ، وألقى ذلك الصيدلى فيها عقاراً آخر غير صالح ، ثم خرج من هذه العقاقير كلها دواء فيه صلاح ، فذلك دليل على الطب ، ودليل على الطبيب .